التربية اللغوية عند علماء القرن الخامس الهجري من خلال مؤلفات ابن عبد البر القرطبي

إعداد
د/ منصور سعد عطية السحيمي
أستاذ اللغويات التطبيقية المساعد
معهد اللغة العربية بجامعة أم القرى
عميد كلية اللغات بجامعة المدينة العالمية بماليزيا(سابقا)

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَلَـكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ "
(آل عمران: ٧٩)
قال عيسى عليه السلام:
"من علم وعمل وعلم دعي في ملكوت السماوات عظيما"
(جامع بيان العلم وفضله، ص ٦٩٠).

التربية اللغوية عند علماء القرن الخامس الهجري
من خلال مؤلفات ابن عبد البر القرطبي"
(٣٦٨هـ / ٩٧٨م - ٤٦٣هـ /١٠٧٠م)

توارث علماء المسلمين العناية باللسان العربي، لما للغة من أهمية بالغة في بناء الشخصية ورسم معالم وجودها وسلوكها أيضا، ومن الثابت لدى الدارسين أن العلوم اللغوية العربية وُجدت للحفاظ على النطق السليم والنقل الدقيق لألفاظ الكتاب العزيز والمحافظة عليه سليما من اللحن وشبهة التحريف. وقد تواترت الآثار الحاثة على الالتزام بالنطق السليم، وتجنب اللحن بكل أشكاله.

وتقتضي الخيرية التي أثبتها الرسول صلى الله عليه وسلم للقرون الأولى ومن والاهم من علماء الأمة، تتبع آثارهم والنظر فيها واستخراج ما اشتملت عليه من مبادئ أصيلة وقيم رفيعة، ومن هذا المنطلق سوف أحاول في هذه الورقة مناقشة الجهود المتصلة بالتربية اللغوية لدى علماء القرن الخامس الهجري، وذلك من خلال إلقاء الضوء على أهم ملامح النشاط الثقافي التربوي (اللغوي تحديدا) على الحقبة التاريخية محل البحث.

ثم محاولة استخلاص أسس التربية اللغوية التي أرساها ابن عبد البر القرطبي في نموذج من أعماله (جامع بيان العلم وفضله)؛ للإفادة من الجهود العلمية والتربوية للمبرزين من علماء الآمة ومحاولة وضع تصور لاستلهامها في وقتنا الراهن.

والله المستعان وهو الموفق

محتويات البحث

- المقصود بالتربية اللغوية.
- إطلالة على القرن الخامس الهجري.
- التعريف بابن عبد البر القرطبي.
- أسس التربية اللغوية التي أرساها ابن عبد البر القرطبي في أعماله، جامع بيان العلم وفضله نموذجا.
- الخلاصة.
- قائمة المراجع.

التربية اللغوية

اشتُقت كلمة التربية من الجذر الثلاثي "ر.ب.و" ، يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي :"ربا الجرح والأرض والمال وكل شيء يربوا ربوا إذا زاد.. وتقول: ربيته وتربيته، أي غذوته"(١).

والتربية "تبليغ الشيء إلى الكمال تدريجا.. والأظهر أنها مشتقة من "ربه" بمعنى رباه وساسه"(٢).

والناظر في التراث العربي لا يجد هذا اللفظ "التربية" مستعملا بنصه، إلا أن مسماه (معناه) موجود في ثنايا التصانيف المتعلقة بطلب العمل وتحصيله، وأدبيات الرقائق والزهد، وغيرها، و"التربية بمفهومها الاصطلاحي المتعارف عليه الآن من الكلمات الحديثة التي شاعت في السنوات الأخيرة متزامنة مع حركة التجديد التربوي في الأقطار العربية في ربع القرن العشرين الثاني"(٣).

وثمة كلمات استخدمت في التراث العربي للدلالة على معنى التربية، منها "التنشئة" ويقصد بها تربية الإنسان ورعايته منذ الصغر، ونُسب إلى أبي العلاء المعري قوله:

وينشأ ناشئُ الفتيان منا على ما كان عوده أبوهُ

وما دان الفتى بحجى ولكن يعلـمه التدين أقربــوهُ

---

(١) معجم العين، باب الراء، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د.عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، جـ٢، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ص٩٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، جـ١، ١٩٨٤م، ص١٦٦ .

(٣) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد الإسلامية، محمد منير مرسي، عالم الكتب، القاهرة١٤٢١هـ، ص٤٨.(بتصرف)

ومن المعاني الموازية لكلمة التربية "التأديب"، و"الأدب" يقول علي إدريس:" كانت كلمة التأديب هي المستعملة والمتداولة عند قدماء العرب"(٤).

والمؤدب هو من يقوم بتعليم الأولاد وتأديبهم وتهذيبهم، وقد كان المؤدب محل التبجيل والاحترام لعظم دوره الذي يؤديه في المجتمع، وقد أولاه الإسلام مكانة رفيعة.

وقد أدرك العرب الأوائل خطورة التنشئة اللغوية وأهميتها في حياة أبنائهم؛ فقد أثر عمن كان يقطن الحواضر منهم إرسال بنيهم إلى البادية حيث اللغة النقية، واللسان القويم، ليكتسبوا العادات اللغوية السليمة، وتستقيم ألسنتهم بالصحيح الفصيح من الكلام.

ومع بزوغ فجر الإسلام زادت العناية باللسان العربي والتربية اللغوية، لارتباطها بالقرآن الكريم، والسنة المطهرة، وليس غريبا أن يكون منشأ الدرس اللغوي العربي مرتبطا بالحفاظ على الكتاب العزيز نطقا وقراءة وتداولا. ونقرأ وصف القرآن في القرآن "بلسان عربي مبين"، كما حض رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون الناس على تعلم العربية، وتجنب اللحن، بل عد اللحن من الضلال عن الجادة اللغوية السليمة.

والتربية"Pedagogy" كما يعرفها معجم "Oxford" هي طريقة التعليم أو كيفيته، أو ممارسته، بالمزج بين التنظير والتطبيق، وقد مرت هذه الكلمة في اللغة الإنجليزية بالمراحل التالية:

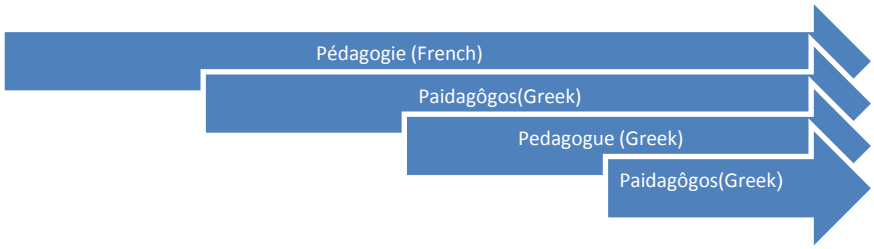

والمربي"pedagogic" اسم أطلقه اليونانيون القدماء على شخص من طبقة العبيد كان يرافق الأطفال عند ذهابهم وعودتهم من المدرسة، كما كان يقوم بتقويم أخلاقهم، ومراقبة سلوكهم، وعاداتهم، في الحديث والمشي والمأكل ومعاملة الناس. وعلم التربية (البيداجوجيا)

(٤) مدخل إلى علوم التربية، علي إدريس، د.ن، ١٤٠٥هـ، ص١٣.

"Pedagogy" يطلق قديما على علم التربية، ولا تزال بعض اللغات الأوربية تحتفظ به كالفرنسية والألمانية(٥).

ولك أن تلاحظ الفارق بين معاملة المربي عندهم والمؤدب في التراث العربي الإسلامي، فالمربي لديهم من طبقة محتقرة وهي العبيد، أما في ثقافتنا العربية الإسلامية فهو من هو في التبجيل والمكانة، كما سلف القول، وتروي كتب التاريخ قصة حدثت في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد؛ حيث كان الكسائي يعلم أولاد هارون الرشيد. وانتهى الكسائي من الدرس فاستبق الأمين والمأمون إلى نعلي الكسائي، أحدهما يريد أن يقدمها بنفسه، واختلفا لأجل ذلك ثم اتفقا على أن يقدم كل واحد واحدة من هذه النعل، فعلم هارون الرشيد بذلك فطلب الكسائي فقال له: من أعز الناس يا كسائي؟! قال: لا أعز من أمير المؤمنين! فقال هارون الرشيد: إن أعز الناس من يتسابق على حمل نعليه وليا عهد المسلمين.. وقال الرشيد لقد سرني ما قاما به وإن المرء لا يكبر عن ثلاث صفات: تواضعه لسلطانه ولوالديه ولمعلمه!

(١) معجم علم النفس والتربية، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٨٤م، ص٧٧.

إطلالة على القرن الخامس الهجري

قد كان مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم بداية مرحلة حضارية ومعرفية مغايرة لما سبقها من أزمان، ليس على الصعيد العربي وحده، بل للبشرية كلها، ومازالت المبادئ والقيم التي أرساها الإسلام يفوح شذاها عبر التاريخ، وقد تجسدت تلك الأسس في القرن الإسلامي الأول في أبهى تجلياتها، ولم تكن ثمة فجوة أو فاصل زمني بين التنظير والتطبيق، فلم يكد الأمر السماوي يتنزل إلا ويتلقاه النبي وصحبه بالتسليم والتنفيذ؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم "قرآنا يمشي على الأرض"، وكان الصحب على دربه سائرين، وقد شهد صلوات الله وسلامه عليه بالخيرية لقرنه وما تلاه من قرون.

نعم، وكيف لا وقد تم هذا الحدث المحوري في تاريخ البشرية في "مكان بعيد كل البعد عن مواطن الحضارة السابقة، وفي بقعة صحراوية لا تلفت الأنظار في قلب الجزيرة العربية؛ ذلك أن العرب قبل الإسلام كانوا فقراء فأغناهم الله بالإسلام وكانوا جهلة فأكسبهم الإسلام علما خالدا، وكانوا متفرقين فتوحدوا بالإسلام، وكانوا أذلة فأعزهم الله بالإسلام. بل لقد عهد إليهم الله تعالى بمهمة تحرير العالم من ربقة الطاغوت والطغيان.. وقد بدأت المحاولات الأولى لهذه العملية زمن الرسول عليه السلام؛ إذ إنه وجه الجيوش بقيادته إلى مشارف الشام في غزوة تبوك.. ولقد سارت العملية شوطا بعيدا جدا من خلفائه الكرام أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم فقد وضع الخليفة الراشدي الأول الخطة لتحرير العالم من ربقة الطاغوت ووجه الجيوش إلى بلاد الشام والعراق"[٦].

وإذا تتبعنا الأطوار التي مرت بها الحضارة الإسلامية نجدها قد مرت بعدة مراحل حتى ظهرت شخصيتها وبدأت في الإشعاع والعطاء، وأول هذه المراحل تمثل في جمع القرآن الكريم في مصحف واحد وضبطه وتوزيعه على الأقطار درءا للخلاف بين جموع المسلمين. والقرآن كما هو أساس الحضارة الإسلامية.. وأما المرحلة الثانية فتظهر في نقل

---

(١) رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب، محمد ماهر حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، جـ١، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م ص٢٢.

علوم الأمم الأخرى وآدابهم إلى اللغة العربية، تم هذا خلال قرنين من الزمان أو أكثر.. وتمثل المرحلة الثالثة تتويجا لسابقتيها، وقد أخذ العرب والمسلمون في التأليف الأصيل في جميع فروع المعرفة عبر البلاد الإسلامية شرقا وغربا.. ويعد القرن الرابع الهجري ذروة مجد الحضارة الإسلامية وقمة نضوجها، وكذلك الوضع حتى القرن السابع الهجري"[٧].

وقد أجمل الدكتور ليث جاسم عوامل النمو الثقافي في الأندلس في القرن الرابع والخامس الهجريين فيما يلي:

- رحلة العلماء المشارقة وغيرهم إلى الأندلس.
- الرحلة من الأندلس إلى المشرق.
- حرية الحياة العلمية.
- تشجيع الخلفاء لأهل العلم ومظاهره[٨].

وقد سجل المؤرخون شيوع "الحلقات التعليمية في معظم مساجد الأندلس، لاسيما في المدن الكبيرة كقرطبة وإشبيلية، وقد وضع بكل جامع مكتبة غنية بالكتب والمؤلفات المتنوعة في شتى العلوم والفنون، وقد اشتهرت حلقات جامع طليطلة، وقصدها الطلاب المسلمون والنصارى أيضا، من جميع أرجاء أوربا بما فيها انكلترا واسكوتلندا.. وقد ذاعت الثقافة العربية والإسلامية والتربية والتعليم.. في إسبانيا المسلمة إلى درجة كبيرة دفعت دوزي المؤرخ المشهور إلى القول بأن أغلب الناس في الأندلس أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة،.. بل إن كثيرا من رجال الدين النصارى في الأندلس تعلموا اللغة العربية وألفوا بها، وقد نقل يوحنا رئيس أساقفة إشبيلية التوراة من اللاتينية إلى العربية"[٩].

---

(١) رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب، (بتصرف) ص٣٠.

(٢) ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، ليث سعود جاسم، دار الوفاء بالمنصورة، مصر، ط٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، ص٨٢ وما بعدها.

(١) رحلة الكتاب العربي إلى بلاد الغرب، مرجع سابق، بتصرف ص ٣٦ ، ٣٨.

التعريف بابن عبد البر القرطبي

هو " العلامة الإمام، شيخ الإسلام، وحافظ المغرب، أبو عمر، يوسف بن عبد الله ابن محمد بن عبد البر بن عاصم النمَري، الأندلسي، القرطبي، المالكي مؤلف التصانيف الفارهة. ولد في سنة ثمان وستين وثلاث مئة في شهر ربيع الآخر.. وبدأ في طلب العلوم بعد سنة التسعين وثلاث مئة، ولحق بالكبار، وعمر طويلا وحاز سندا عاليا رفيعا، والتف حوله الكثير من طلاب العلم، وصنف وجمع، ووثق وضعف، واشتهرت تصانيفه وسار بها الركبان، واحترم علمه علماء الزمان.. قال أبو القاسم بن بشكُوال: ابن عبد البر إمام عصره، وواحد دهره، يكنى أبو عمر، روى بقرطبة عن أبي محمد بن عبد المؤمن، وعن خلف بن القاسم، وعبد الوارث بن سفيان، وسعيد بن نصر، .. قال أبو علي بن سكرة: سمعت أبا الوليد الباجي يقول: لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث، وهو أحفظ أهل المغرب.. وتوفي سنة ثلاث وستين وأربع مئة، وعاش خمسا وتسعين سنة وخمسة أيام رحمه الله "[١٠].

شيوخ ابن عبد البر وتلاميذه[١١]:

أولا: شيوخه:

تلمذ ابن عبد البر لمشاهير من عاصرهم من العلماء في بيئته، ومنهم:

- أحمد بن عبد الله الباجي.
- أحمد بن عبد الملك الإشبيلي.
- خلف بن القاسم الأسدي.
- عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي.

---

(٢) سير أعلام النبلاء، للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م، جـ١٨، ص ١٥٣ و مابعدها.(بتصرف).

(٣) راجع: ابن عبد البر القرطبي وجهوده في التاريخ، مرجع سابق، من ص١٢٥ حتى ١٥٠.

- عبد الوارث بن سفيان بن جبرون.

ثانيا: تلاميذه:

وأفاد من علم ابن عبد البر كثير من طلاب العلم في عصره، منهم:

- حسين بن محمد بن أحمد الغساني الجياني.
- عبد الرحمن بن محمد بن عتاب بن محسن.
- طاهر بن مفوز بن أحمد المعافري.
- ابن حزم علي بن أحمد الأندلسي.
- محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي.

تصانيف ابن عبد البر:

ترك ابن عبد البر تراثا ذاخرا في علوم كثيرة، من أشهرها تصانيفه في علم الحديث والرجال، إلا إنه "كان ابن عبد البر ذا ثقافة متنوعة موسوعية، وهي ثمرة جد واجتهاد في تلقي العلم عن كبار علماء عصره في الأندلس، ممن كانت لهم الصدارة في اختصاصاتهم" _كما يقول الدكتور ليث جاسم_ الذي صنف أعمال ابن عبد البر تصنيفا موضوعيا؛ "القراءات، الحديث وعلومه، الفقه وما يتصل به، التاريخ وما يتعلق به، الأدب والثقافة العامة، وقد بلغت أعمال ابن عبد البر _حسب د.ليث_مئة وثلاثة وخمسين مؤلفا"[١٢].

(١) انظر الفصل الخامس من" ابن عبد البر القرطبي وجهوده في التاريخ، من ص١٩٧ وما يليها.

ملامح التربية اللغوية في جامع بيان العلم وفضله

تبدو لنا أهمية التربية اللغوية عند ابن عبد البر في جانبين، أولهما الجانب التنظيري والأخر الجانب التطبيقي. يتمثل الجانب التنظيري في اختيارات ابن عبد البر وإرشاداته المبثوثة في ثنايا أعماله عامة، والمنصوص عليها تحت أبواب بعينها في كتبه التي أفردها للحديث عن طلب العلم والتحصيل. أما الجانب التطبيقي فيبدو جليا في أعماله وتصانيفه، حيث جاءت في لغة سليمة رصينة، ناسبت مستوى الخاصة من المتخصصين، وفى الوقت نفسه لا يصعب على غيرهم الإفادة منها والتفيؤ بظلها.

وقد دلت اختيارات ابن عبد البر على بعد نظره وتمكنه في الناحية العلمية والمنهجية، كما أن أعماله ومؤلفاته خير شاهد على تمكنه وتطبيقه للمبادئ التي أرساها من الناحية اللغوية، والعناية باللسان العربي. وفيما يأتي عرض موجز لأهم ملامح التربية اللغوية كما تبدو في كتاب ابن عبد البر الرائع "جامع بيان العلم وفضله"، وقد اقتصرت في هذه الورقة على هذا الكتاب فحسب، ولعل الله ييسر العودة إلى سائر أعمال ابن عبد البر في مناسبة أخرى.

مراعاة المرحلة السنية: التعلم بين الصغر والكبر

أورد ابن عبد البر جملة من الآثار الدالة على ضرورة أن يتم التعليم في حداثة السن(الصغر)، وبوب له بقوله: " فضل التعلم في الصغر، والحض عليه".

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من تعلم العلم وهو شاب كان كوشم في حجر، ومن تعلم العلم بعد ما يدخل في السن كان كالكاتب على ظهر الماء" عن يوسف بن يعقوب الماجشون قال: قال لنا شهاب ونحن نسأله: "لا تحقروا أنفسكم لحداثة أسنانكم، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا نزل به الأمر المعضل دعا الفتيان فاستشارهم يبتغى حدة عقولهم"[١٣] .

(١) السابق، من ص ـ٣٥٣ حتى ص . ٣٦٤.

وإذا ما قارنا بين ما يشير إليه ابن عبد البر هنا و بين ما يذكره اللغويون عند الحديث عن اكتساب اللغة ومراحله، وعن الفترة المُثلى التي يمكن أن تتم فيها عملية الاكتساب اللغوي على النحو الفعال تبين لنا عمق نظرته إلى هذا الأمر وأهميتها؛ إذ إن فترة الطفولة من عمر الإنسان أولاها اللغويون عناية كبيرة ومنهم من رأى أن الطفل يستطيع في هذه المرحلة تعلم/اكتساب أكثر من لغة واحدة(١٤).

وهو في الوقت نفسه يورد جملة من الآثار الدالة والحاثة على أن يكون التعلم مستمرا مدى الحياة.

أهمية الحوار في الاكتساب اللغوي والتعلم

كما التفت ابن عبد البر أيضا إلى أهمية السؤال والحوار في التلقي،" باب حمد السؤال، والإلحاح في طلب العلم". قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "شفاء العي السؤال". وقد تعرض لهذا الأمر في غير موضع من كتابه هذا(١٥) .

ويقول ابن عبد البر: أنشدت لبعض المتقدمين:

إذا كنت في بلد جاهلا وللعلم ملتمسا فاسأل

فإن السؤال شفاء العي كما قيل في المثل الأول(١٦)

ويروى لأمية بن أبى الصلت قوله:

وقد يقتل الجهل السؤال ويشتفى إذا عاين الأمر المهمّ المعاين

وفى البحث قدما والسؤال لذى العمى شفاء وأشفى منه ما تعاين(١٧)

---

(٢) طالع الموقع: http://www.alarab.qa/details.php?issueId=1478&artid=165246.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، صـ٣٧٣.

(٤) جامع بيان العلم وفضله، صـ٣٧٦.

(١) السابق، صـ٣٧٨.

وإذا كان "العلم خزائن ومفتاحها السؤال" كما يروى ابن عبد البر فإن السؤال أيضا مفتاح رئيس للحوار، والحوار أداة فاعلة في تحقيق التواصل اللغوي بين الطالب والأستاذ وهو تطبيق عملي واقعي لما يتم تعلمه من المبادئ النظرية في اللغة والثقافة والسلوك.

وقد زاد ابن عبد البر على ما جمع وانتقى من آثار وأقوال في الحض على الطلب والإلحاح فيه، زاد أن نظم شعرا يلخص فيه جماع ما اختاره، يقول:

يا من يرى العلم جمع المال والكتب خدعت_والله_ليس الجد كاللعب

العلم ويحك ما في الصدر تجمعه حفظا وإتقـــــــانا فداك أب

إن الحيـــــــــاء لخير كله أبدا ما لم يحل بين نفس المرء والطلب(١٨)

وقد تقرر لدى التربويين أهمية الحوار في تعلم اللغة بوصفه عاملا من أهم العوامل لحدوث التعلم، "وقد أظهرت البحوث الأمريكية والبريطانية أن الحوار داخل الفصول الدراسية يتفيد بقانون الثلثين– بمعنى أن ثلثي أحداث الدرس تشتمل على حوار، وثلث هذا الحوار يتمثل في كلام المعلم..ويرى بارنز، أن اللغة تعد أهم وسائل التعلم، وأن استغلال الطلاب لها في التعلم يتأثر باللغة التي يستخدمها المعلمون في توصيف أدوارهم كمتعلمين، وهذا الرأي يشتمل على تغيير جذري، وهو التحول من التركيز على الرؤية التقليدية للغة كوسيلة للتدريس إلى التركيز على اللغة كوسيلة للتعلم _ وهذا من الناحية العلمية_ يعنى أننا نتعلم_ ليس من الاستماع السلبي للمعلم، ولكن أيضا من خلال الحوار اللفظي والمناقشات والجدل المتبادل بين المعلم والطلاب(١٩).

ويعد "طرح الأسئلة من المهارات المهمة، وخاصة إذا كان الهدف من ورائها تحقيق النجاح المرجو منها وهي أداة قوية لعمليتي التدريس والتعليم، ويتوقف التدريس

---

(٢) السابق، صـ٣٨٦.

(١) دليل ممارسة التدريس، تأليف: لويس كوهين، ولورانس مانيون، وكيث موريسون، ترجمة د.محمد محمد سالم، منشورات جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع، ١٤٣٢هـ، ٢٠١٠م، جـ٢، ص٥٠١، ٥٠٢.

الناجح والفعّال جزئيا على فعالية أسئلة المعلمين وطريقة طرحها والتغذية الراجعة منها.. يجب طرح الأسئلة في شكل حوار بسيط وودي وبطريقة تثير التحدي لدى الطلاب"[٢٠].

ونلحظ أن ابن عبد البر يتجنب الاستطراد دونما داع؛ حيث يقول: "تركته لأنه ليس مما قصدنا له في هذا الباب".

رُوى عن وكيع قوله: سمعت إبراهيم يقول: "إذا سمعت حديثا فحدّث به حين تسمعه، ولو أن تحدث به من لا يشتهيه، فإنه يكون كالكتاب في صدرك"[٢١].

وتحضرني هنا مقولة أستاذنا **الدكتور كمال بشر**_ رحمه الله أوسع الرحمات "**اسمع وأسمع**" إذ إنّ الاستماع أول المهارات اللغوية وأهمها، وقال أستاذنا بشر أيضا: "إذا أردت أن تتعلم أي لغة على وجه الأرض فاسمعها وأسمعها لنفسك ولغيرك".

روي عن عبد الله بن المبارك قوله: "أول العلم النيّة، ثم **الاستماع**، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر"[٢٢].

عن يونس بن يزيد قال: قال لي ابن شهاب: "يا يونس لا تكابر العلم فإن العلم أودية، فأيهما أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الليالي والأيام".

عن الزهري يقول: كان بعضهم يقول: "هاتوا من أحاديثكم هاتوا من أشعاركم فإن الأذن مجاجة، والنفس حمضة".. وفى هذا إشارة إلى ضرورة المراوحة والتنوع في تقديم المادة العلمية إلى الدارسين حتى لا يملوا.

---

(٢) السابق، ص٥٢٠، ٥٢٨.

(٣) جامع بيان العلم، ص ٣٢٥.

(٤) جامع بيان العلم، ص ٤٧٦. ويبدو لي أن ابن عبد البر كان ملما ببعض لغات العجم؛ يقول:" ورأيت فى بعض كتب العجم: سئل جالينيوس بم كنت أعلم قرنائك بالطب؟ قال: "لأنى أنفقت فى زيت المصابيح لدرس الكتب مثل ما أنفقوا فى شرب الخمر". وروي مثل هذا عن أفلاطون. جامع بيان العلم .صـ٤٢٩".

و"العالم النبيل الذى يكتب أحسن ما يسمع، ويحفظ أحسن ما يكتب، ويحدث أحسن ما يحفظ"[٢٣] .

قال ابن عبد البر عن سفيان بن عيينة، قال عيسى ابن مريم عليه السلام: "جالسوا من تذكركم بالله رؤيته ومن يزيد في علمكم منطقه، ومن يرغبكم في الآخرة عمله".

وعن ابن وهب قال: "ما تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه". وروي " كنا نأتي مسروقا فنتعلم من هديه ودلّه"[٢٤] .

كل هذه الاقتباسات والإشارات تفيد إدراك ابن عبد البر لأهمية الثقافة بعامة، وأهمية الثقافة اللغوية السلوكية بصفة خاصة، فاللغة ثقافة وسلوك، وهي عادة اجتماعية في المقام الأول ولا يمكن بحال أن تؤخذ اللغة بمعزل عن الثقافة التي نشأت في خضمها.

ويتفق الباحث والدكتور ليث سعود جاسم الذي يقول عن هذا الكتاب: "قد حشد ابن عبد البر في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) هذا مادة أصيلة منوعة يغلب عليه فيها النقل في كثير من أبواب الكتاب. ملتزما في نقله للأخبار والأشعار بالرواية على طريقة المحثين، ولكنه مع هذا كان يقف في بعض المواضع ناقدا، ومحلا وموضحا ومستخلصا للقواعد العامة من النصوص"[٢٥] .

ولا يغض هذا من جهد ابن عبد البر بطبيعة الحال؛ إذ إن عملية الاختيار والتصنيف واستخلاص المبادئ العامة، ليست بالأمر الهين، زد على ذلك أن الكثير من تلك المصادر التي نقل عنها ابن عبد البر في عداد المفقود من تراثنا.

إقامة اللحن وتصويب الأخطاء والتعويل على السياق (خلال رواية الحديث بالمعنى).

رُوى عن عبد الله بن محمد بن يوسف عن عياش بن المغيرة بن عبد الحمن المخزومي عن أبيه أنه جاءه الداراوردى عبد العزيز بن محمد يقرأ عليه الحديث، فجعل

---

(١) جامع بيان العلم، ص ٤٧٦.

(٢) جامع بيان العلم، ص ٥٠٨، ٥٠٩.

(١) ابن عبد البر وجهوده في التاريخ، مرجع سابق، ص٢٣٠.

يقرأ ويلحن لحنا منكرا، فقال له المغيرة: "ويحك يا داراوردي، كنت **بإقامة لسانك** قبل طلب هذا الشأن أحرى، يقول ابن عبد البر: "والقول من هذا الباب ما قاله الحسن والشعبي وعطاء ومن تابعهم وهو الصواب". ولنعد إلى ما قاله هؤلاء كما أثبته ابن عبد البر في كتابه عن الحسن قال: "قلت لابن المبارك: "يكون في الحديث **لحن أقومه؟** قال نعم؛ لأن القوم لم يكونوا يلحنون، اللحن منا"[٢٦].

وعن غياث بن أشعث قال: "كنت أحفظ الحديث عن الحسين وابن سيرين والشعبي، فأما الحسن والشعبي فكانا **يأتيان بالمعنى**". وعن أبى بكر بن شيبة عن الحسن والشعبي أنهما كانا لا يريان بأسا **بتقديم الحديث وتأخيره**، وكان ابن سيرين يتكلفه **كما سمع**[٢٧].

ويظهر هنا أن ابن عبد البر يرى جواز رواية الحديث بالمعنى وإصلاح ما به من لحن؛ وهو هنا يلتفت إلى أهمية الصواب اللغوي، من خلال الاستعانة بالسياق.

(٢) جامع بيان العلم، ص٣٥١ ـ٣٥٣.

(٣) السابق، ص ـ٣٤٩.

الخلاصة

بعد هذه التطوافة العجلى حول بعض جهود ابن عبد البر في مجال التربية اللغوية، على ضوء كتابه الموسوم بـ"جامع بيان العلم وفضله"، لم يبق إلا أن نتحدث عن بيت القصيد من هذه الورقة وهو كيف نترسم خطى أسلافنا العظام في واقعنا المعيش؟ لا سيما في مجال التربية بعامة، والعناية باللغة العربية بخاصة.

ونتوجه بإجابتنا عن هذا الطرح إلى المعنيين في حقل التعليم على اختلاف مراحله، وبالتحديد القطاع الجامعي؛ فينبغي علينا الإفادة من منهج أمثال ابن عبد البر القرطبي ومن جهوده، النظرية والعملية، في ما نكتبه وما نعلمه، وأن نتحلى بالأمانة والإتقان، وفي باب تربية أبنائنا من الطلاب تربية لغوية صحيحة؛ على المؤلف أن يحسن انتقاء مادته العلمية، وأن يكون أمينا في نسبة ما ينقله إلى صاحبه، وعليه أن يميز بوضوح بين ما يرويه لغيره، أو ينقله، فقد رأينا ابن عبد البر يلتزم الأمانة التامة في نسبة الأقوال إلى أصحابها، فإذا ماعن له تعليق أو خاطرة، ميز ذلك بقوله: "قال أبو عمر".

وقد وقف البحث على ثلاثة من الأسس التي أرساها ابن عبد البر في مجال التربية اللغوية، ومراعاتها من الأهمية بمكان في تعليم العربية، وهي:

مراعاة المرحلة السنية: التعلم بين الصغر والكبر.

أهمية الحوار في الاكتساب اللغوي والتعلم.

إقامة اللحن وتصويب الأخطاء والتعويل على السياق (خلال رواية الحديث بالمعنى).

والله من وراء القصد.

الباحث

قائمة المراجع

(١) إدريس، علي، مدخل إلى علوم التربية، د.ن، ١٤٠٥هـ.

(٢) جاسم، ليث سعود، ابن عبد البر الأندلسي وجهوده في التاريخ، دار الوفاء بالمنصورة، مصر، ط٢، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.

(٣) حمادة، محمد ماهر، رحلة الكتاب العربي إلى ديار الغرب، مؤسسة الرسالة، بيروت، جـ١، ط١، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

(٤) الذهبي، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، جـ١٨، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.

(٥) عاشور، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، جـ١، ١٩٨٤م.

(٦) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، معجم العين، تحقيق د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية بيروت، جـ٢، ط١، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

(٧) القرطبي، ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط١،١٤١٤هـ، ١٩٩٤ م .

(٨) كوهين، لويس، ولورانس مانيون، وكيث موريسون، دليل ممارسة التدريس: ترجمة د. محمد محمد سالم، منشورات جامعة الملك سعود، النشر العلمي والمطابع، ١٤٣٢هـ، ٢٠١٠م.

(٩) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، معجم علم النفس والتربية، ١٩٨٤م.

(١٠) مرسي، محمد منير، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد الإسلامية، عالم الكتب، القاهرة١٤٢١هـ.

- http://www.alarab.qa/details.php?issueId=1478&artid=165246